الباب الثالث

في معرفة الرجال

الرجال ثلاثة:

وقد قسم بعضهم الرجال إلى ثلاثة أقسام: فارس وشجاع وبطل، فالفارس الذي إذا شدوا شد بحزم وعزم، والشجاع هو الداعي إلى المبارزة والمجيب إذا دعي إليها، والبطل الحامي لحمى القوم، والحامي لظهورهم إذا انهزموا.

وقد أمر الله بالإقدام، وحذر من الإحجام، وحث على الثبات والملاقاة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ۝١٥ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝١٦﴾ [سورة الأنفال: ١٥-١٦]

وجاء في وصية خليفة رسول الله ﷺ، أبي بكر الصديق ﷺ، لخالد بن الوليد سيف الله المسلول، لما وجهَهُ لقتال المرتدين، قال له: إحرص على الموت توهب لك الحياة.

وهذا أكثم بن صيفي بن رياح بن حارث التميمي، حكيم العرب في الجاهلية وأحد المعمرين المتوفى حوالي عام ٩هجرية، خرج من بلده في مئة من قومه قاصداً المدينة المنورة، يريدون الإسلام، فمات في الطريق، وأسلم قومه، وقيل: إنه المعني بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝١٠٠﴾ [سورة النساء: ١٠٠].

كانت وصية أكثم بن صيفي لقومه، إذا أرادوا حرباً قال لهم: اقلوا الخلاف لأمرائكم، واعلموا أن كثرة الصياح من الفشل، والمرء يعجز لا محالة، وادرعوا الليل، فإنه أخفى للويل.

الرجال في رأي المهلب:

وكان المهلب يقول: أشجع الناس ثلاثة: ابن الكلبية، وأحمر قريش، وراكب البغلة، فابن الكلبية مصعب بن الزبير بن العوام الأسدي القريشي أبو عبد الله أحد الولاة الأبطال، في صدر الإسلام، فكان عضد أخيه عبد الله بن الزبير، ولّاه أخوه عبد الله البصرة عام ٦٧هـ، فضبط أمورها، وقتل المختار الثقفي، ثم عزله أخوه لمدة سنة عنها، ثم أعاده إليها أواخر سنة٦٨هـ، وأضاف إليه الكوفة، فأحسن

سياستهما، وتجرد عبد الملك بن مروان لقتاله، فسيَّر إليه الجيوش الجرارة، فكان مصعب يفلها واحداً واحداً.

فلما رأى عبد الملك انهزام جيوشه، خرج بنفسه إليه، فلما دخل العراق خذل مصعباً قادةُ جيشه فثبت مصعب فيمن بقي معه، فأرسل إليه عبد الملك أخاه محمد بن مروان فعرض عليه الأمان وولاية العراقين، مادام حياً، ومليوني درهم صلة على أن يرجع عن القتال، فأبى مصعب ذلك، فدفع عليه جيش عبد الملك في وقعة عند دير الجاثليق ـ على شاطىء دجيل ـ وطعنه زائدة بن قيس السعدي فقتله، وحمل رأسه إلى عبد الملك بن مروان، وبمقتله نقلت بيعة أهل العراق إلى أمراء الشام.

وكان مصعب بن الزبير، أحب أمراء العراق إلى أهل العراق، يعطيهم عطاءين، عطاء للشتاء، وعطاء للصيف،وكان يشتد في موضع الشدة، ويلين في موضع اللين، هذا هو أحد الشجعان الأبطال الثلاثة الذين كان يضرب بهم المثل المهلب بن أبي صفرة، وهو من هو شجاعة وإقداماً.

والثاني : أحمر قريش : عمر بن عبيد الله بن معمر القرشي، كان سيد بني تيم في عصر الإسلام، ومن كبار القادة الشجعان الأجواد، كان من رجال مصعب بن الزبير أيام ولايته في العراق، وولي له بلاد فارس، وحرب الأزارقة عام ٦٨هـ وكان قبل ذلك على البصرة.

وأرسله عبد الملك بن مروان لقتال أبي فديك سنة ٧٣ هـ فقتل من أصحابه نحو ستة آلاف وأسر ثمانمائة، وعاد بعد ذلك إلى عبد الملك فكان من جلسائه.

فوصفه قطري بن الفجاءة بقوله : بطل يقاتل لدينه وملكه بعزيمة، لم أر مثلها لأحد قط، وما حضر حرباً إلا كان أول فارس يقتل قرنه، هذا هو البطل الشجاع الثاني في رأي المهلب بن أبي صفرة.

والثالث: هو عباد بن الحصين بن يزيد التميمي أبو جهضم ، فارس تميم في عصره، ولي شرطة البصرة أيام ابن الزبير، وكان مع مصعب بن الزبير أيام قتل المختار، وشهد فتح كابل مع عبد الله بن عامر.

إن مواقف الرجال الأبطال الشجعان تحيي النفوس، وتشوق الطموحين للتأسي بهم والاقتداء.

شهادة أبي بكر الصديق لطلحة:

وكان أبو بكر الصديق ﷺ، إذا ذكر يوم أُحُد قال: ذلك يوم كله لطلحة بن عبيد الله، وذلك أنه ثبت مع رسول الله ﷺ، حين تفرق عنه أصحابه، فأصيبت يده فشُلَّت، وكان يقي بها وجه رسول الله ﷺ،وأصابته بضع وسبعون من ضربة وطعنة ورمية.

وطلحة بن عبيد الله بن عثمان التميمي القريشي، أبو محمد، يعتبر من الشجعان الأجواد الذين يضرب بهم المثل في الشجاعة والإقدام والثبات والجود، والسخاء والكرم، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة،وأحد الستة أصحاب الشورى الذين عيَّنهم عمر بن الخطاب لاختيار أمير المؤمنين.

وقال ابن عساكر: كان طلحة بن عبيد الله، من دهاة قريش ومن علمائهم، وكان يقال له ولأبي بكر الصديق: القرينان، وذلك لأن نوفل بن الحارث، وكان أشد قريش رأى طلحة وقد أسلم خارجاً مع أبي بكر من عند النبي ﷺ، فأمسكهما وشدهما في حبل، ويقال له: طلحة الجود وطلحة الخير، وطلحة الفياض، وقد لقبه بذلك كله رسول الله ﷺ في مناسبات مختلفة، ودعاه مرة (الصبيح المليح الفصيح).

وكانت له تجارة وافرة مع العراق، ولم يكن يدع أحداً من بني تيم عائلاً إلا كفاه مؤونته وعياله، ووفَّى دينه، قتل يوم الجمل وهو مع أم المؤمنين عائشة ابنة أبي بكر الصديق ﷺ، ودفن في البصرة عام ٣٦ هجرية وعمره حوالي ٦٤ عاماً، رَحِمَهُ اللَّهُ وأسكنه فسيح جناته.

ليست الأمور بالمظاهر:

ويروى أن الإسكندر استعرض جنده، فتقدم إليه رجل على فرس أعرج، فأمر بإسقاطه وإبعاده، فضحك الرجل من تصرف الإسكندر، فاستعظم ضحكه في ذلك المقام، فقال له: ما أضحكك وقد أسقطتك ؟.

قال الرجل: تحتك آلة الهرب، وتحتي آلة الثبات ثم تسقطني؟ فأعجب الإسكندر بقوله فأثبته:

وقسم معن بن زائدة بن عبد الله الشيباني سلاحاً في جيشه، فدفع إلى رجل منهم سيفاً رديئاً، فقال له الرجل: أصلح الله الأمير أعطني غيره، قال له معن: خذه فإنه مأمور، فقال الرجل هو مما أمر أن لا يقطع أبداً، فضحك معن وأعطاه سيفاً غيره.

وقال الشاعر:

عشرون ألف فتى ما منهم أحد إلا كألـــف فتى مقدامة بطـل
راحت مزاودهم مملوءة أمـــلاً ففرغوها وأوكوها من الأجـــل

ملك الفرس بعد يزدجرد:

ويقال ملكت الفرس بعد يزدجرد رجلاً، ليس من آل ساسان، وآل ساسان هم بنو ساسان الأصغر، وهو جد الأسرة الساسانية، وكانوا ملوك الطبقة الرابعة من الفرس، وهم أولاد بابك بن ساسان، وقد ملك الفرس بعد يزدجرد الأثيم هذا الرجل من عقب أردشير بن بابك هو كسرى.

لما رأوا من ظلم يزد جرد وعسفه، ملكوا (فنهد بهرا م جور)، وكان في حجر النعمان بن المنذر ملك الحيرة، وهو النعمان الثالث بن المنذر الرابع ابن المنذر اللخمي، أبو قابوس و كان من أشهر ملوك الحيرة في الجاهلية، وكان داهية مقداماً شجاعاً، وهو الذي مدحه النابغة الذبياني، وحسان بن ثابت الأنصاري، وحاتم الطائي.

وهو صاحب إيفاد العرب إلى كسرى، وباني مدينة (النعمانية) على ضفة دجلة، وهو صاحب يومي البؤس والنعيم، وهو قاتل عبيد بن الأبرص الشاعر في يو م بؤسه، وكان مُلْكُ الحيرة إرثاً عن أبيه.

تركه والده في حجر النعمان بن المنذر ليتعلم لغات العرب وأخبارها، وآدابها ولطلب المملكة، وقال أبوه: اعمدوا إلى أسدين جائعين، فاطرحوا بينهما التاج، فمن أخذه فهو المَلِك، ففعلوا ذلك ، فدنا منهما فأهويا نحوه فأخذ برأس أحدهما فأدناه من رأس الآخر، ثم نطحه به فقتلهما جميعاً، وشدّ على التاج، فأخذه ووضعه على رأسه فملّكته الفرس عليها.

صراحة رجل من اليمن:

المواقف تظهر جواهر الرجال، قال طاووس بن كيسان التابعي المشهور: ما شفاني أحد من الحجاج بن يوسف الثقفي، مثل ما شفاني يمني، قال له الحجاج وهو يطوف: يا يمني كيف خلفت محمد بن يوسف؟.

قال الرجل اليماني: تركته عظيماً سميناً، قال الحجاج: لست عن السمن أسألك، ولكن عن عدله في رعيته؟.

قال الرجل: خلفته ظلوماً غشوماً، قال الحجاج: كيف ألا تشكوه إلى من هو فوقه؟ قال الرجل: إنك والله شر منه، قال الحجاج: أتعرفني؟ قال الرجل: نعم أنت الحجاج بن يوسف الثقفي، قال الحجاج: تعرف مكانه مني؟ قال الرجل نعم: هو أخوك.

قال الحجاج: فلم لم يمنعك ذلك أن قلت ما قلت؟، قال الرجل : أترى مكان الله أهون عندي من مكانك؟.

قال الحجاج: أي العرب خير؟ قال الرجل: بنو هاشم، قال الحجاج: لم؟ قال الرجل لأن رسول الله ﷺ منهم. قال الحجاج: وأي العرب شر؟ قال الرجل: ثقيف، قال الحجاج: لم؟ قال الرجل: لأن الحجاج منهم.

فدعا الحجاج بعشرة آلاف درهم فأعطاه، ثم قال: يا طاووس هذا رجل لا تأخذه في الله لومة لائم، هكذا تكون الشجاعة ،وذلك موقف الشجعان من الرجال، والشجاعة لا تقدم أجلاً لم يحن وقته، ولا يؤخر الجبن أجلا إذا حان وقته، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [سورة الأعراف: ٣٤].

عمرو بن معديكرب مع رسول الله :

ويروى أن رسول الله ﷺ، عندما أقبل من غزوة تبوك منتصراً، يريد المدينة المنورة، أدركه عمرو بن معد يكرب الزبيدي في رجال من زبيد،فتقدم عمرو ليلحق برسول الله ﷺ، فأمسك حتى أذن به، فلما تقدم رسول الله ﷺ، يسير إلى عمرو قال عمرو: حياك الله إلهك: أبيت اللعن، وهي عبارة كانت العرب تستعملها في الجاهلية في الدعاء والتحية لملوكها، أي مبرأ أن تأتي بشيء تستوجب به اللعنة أو تستوجب به اللعن.

فقال له الرسول ﷺ: «**إن لعنة الله والملائكة والناس أجمعين على الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، فآمن بالله يؤمنك يوم الفزع الأكبر**». فقال عمرو: وما الفزع الأكبر؟.

قال رسول الله ﷺ: «**إنه فزع ليس كما تحسب وتظن أنه يصاح بالناس صيحة لا يبقى حي إلا مات، إلا ما شاء الله من ذلك، ثم يصاح بالناس صيحة لا يبقى ميت إلا نشر، ثم تلج تلك الأرض بدوي تنهدّ منه الأرض وتخرّ منه الجبال، وتتشقّق السماء انشقاق القبطية الجديدة(ثياب مصرية) ما شاء الله في ذلك، ثم تبرز النار فينظر إليها حمرا مظلمة قد صار لها لسان في السماء، ترمي بمثل رؤوس الجبال من شرر النار، فلا يبقى ذو روح إلاّ انخلع، وذكر ذنبه، أين أنت يا عمرو؟**».

قال عمرو: إني أسمع أمراً عظيماً، فقال رسول الله ﷺ: «**يا عمرو أسلم تسلم**»، فأسلم عمرو وبايع لقومه على الإسلام، وكان ذلك في سنة تسع للهجرة ا لنبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

كتاب الله يحثّ على الجهاد:

وقد حذر الله في كتابه العزيز، من اعتماد القول دون العمل، قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [سورة الصف: ٢-٣].

وكذلك حثّ الإسلام على الشجاعة والإقدام، بغير تهور، وأوصى القرآن الكريم بذلك في آيات كثيرة، فمنها قوله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٤٥ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٤٦﴾ [سورة الأنفال: ٤٥-٤٦].

فقد جمع الله في الآيتين السابقتين، جميع ما يحتاج إليه الإنسان، في الحرب من الشجاعة والتخطيط، وأخذ العيون لمعرفة ما عند العدو من القوة والعدة والعتاد، فتلك هي عماد وطريق النجاح، ومن فَقَدَهَا فَقَدَ الطريق الموصل إلى برّ الأمان.

الرسول يتعوّذ من الجبن:

وبالمقابل فالعرب يمقتون الجبن، ويزدرون الجبناء، وهذا سيدنا رسول الله ﷺ يستعيذ من الجبن، فقال في دعائه: «**اللّهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال**».

نعوذ بالله مما استعاذ منه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال الشاعر في وصف الجبان:

إذا صوت العصفور طار فؤاده وليث حديد الناب عند الثرائد

ثمن الغرور:

ويحكى عن ملك الحيرة في الجاهلية، عمرو بن هند، قال يوماً لجلسائه: هل تعلمون أن أحداً من العرب من أهل مملكتي يأنف أن تخدم أمه أمي؟.

قالوا: ما نعرفه إلا أن يكون عمرو بن كلثوم التغلبي، فإن أمه ليلى بنت مهلهل ابن ربيعة، وعمها كليب، وزوجها كلثوم بن مالك بن عتاب، وابنها عمرو بن كلثوم سيد قومه.

فسكت عمرو بن هند، الذي عرف بنسبته إلى أمه هند، وبعث إلى عمرو بن كلثوم يستزيره، ويأمره أن تزور أمه ليلى بنت مهلهل أمه هند بنت الحارث.

فقدم عمرو بن كلثوم في فرسان بني تغلب، ومعه أمه ليلى بنت مهلهل، فنزل على شاطىء الفرات، وبلغ عمرو بن هند قدومه، فأمر فضربت خيامه بين الحيرة والفرات، وأرسل إلى وجوه أهل مملكته، وصنع لهم طعاماً، ثم دعا الناس إليه فقرب إليهم الطعام على باب السرادق ـ السرادق ـ هو الفسطاط الذي يمد فوق صحن البيت، وجلس هو وعمرو بن كلثوم، وخواص أصحابه في السرادق.

وليلى أم عمرو بن كلثوم مع هند بنت الحارث، أم الملك عمرو بن هند في قبة نصبت لهما، وقال الملك لأمه هند، إذا فرغ الناس من الطعام ولم يبق إلا الطرف فنحي خدمك عنك، واستخدمي ليلى بنت مهلهل ومريها لتناولك الشيء بعد الشيء.

ففعلت أم الملك عمرو بن هند، ما أمرها به ابنها الملك، فلما استدعى الطرف، قالت هند بنت الحارث لليلى: ناوليني ذلك الطبق، قالت ليلى بنت مهلهل: لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها، فألحت عليها هند، فقالت ليلى بنت مهلهل: واذلاه، يا آل تغلب.

فسمعها ولدها عمرو بن كلثوم، فثار الدم في وجهه، والقوم يشربون، فعرف الملك عمرو بن هند الشرّ في وجهه، فثار عمرو بن كلثوم إلى سيف ابن هند وهو معلق بالسرادق، وليس هناك سيف غيره ، فأخذه ثم ضرب به رأس الملك عمرو ابن هند فقتله، وخرج فنادى: يا آل تغلب فانتهبوا ماله وخيله، وسبوا النساء وساروا فلحقوا بالحيرة.

وها هو ذا عمرو بن كلثوم يفتخر ويذكر موقفه، ملبياً دعوة أمه واستغاثتها دفاعاً عن شرفها وشرف مجدها ومجد آبائه وأجداده، وقومه حيث يقول :

بأي مشيئة عمرو بن هند تطيع بنا الوشاة وتزدرينا؟!
بأي مشيئة عمرو بن هند نكون لقيلكم فيها قطينا؟!
تهددنا و توعدنا رويداً متى كنا لأمك مقتوينا؟!
فإن قناتنا يا عمرو! أعيت على الأعداء قبلك أن تلينا
ورثنا مجد علقمة بن سيف أباح لنا حصون المجد دينا
ورثت مهلهلاً والخير منه زهير نعم ذخر الذاخرينا
وعتَّاباً و كلثوماً جميعاً بهم نلنا تراث الأكرمينا
ونحن الحاكمون إذا أطعنا ونحن العازمون إذا عصينا
ونحن التاركون لما سخطنا ونحن الآخذون إذا غضبنا
وكنا الأيمنين إذا التقينا وكان الأيسرين بنو أبينا
فصالوا صولة فيمن يليهم وصلنا صولة فيمن يلينا
فآبوا بالنهاب وبالسبايا وأُبنا بالملوك مصفّدينا

إنها ملحمة تدل على الشجاعة والأنفة، والدفاع عن النفس، ولد سمع صوت أمه يدل على الإهانة، فلم يرض بذلك، وممن تهان؟ من أم ملك ظن ولدها الملك أنها أعز أم في العرب في زمانها، أين نحن اليوم من عدم طاعة الوالدين، وقد

حثّ الإسلام على طاعة الوالدين، اقرأ معي قوله تبارك وتعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [سورة الإسراء: ٢٣-٢٤] .

عاقبة الغدر:

ويروى أن الرسول ﷺ في العام الثامن للهجرة النبوية جهز جيشاً للقصاص ممن قتلوا الحارث بن عمير الأزدي رسول رسول الله إلى أمير بصرى، داعياً إلى الإسلام.

وقيل: إن الرسول ﷺ، أرسل سرية إلى ذات الطلح على حدود الشام يدعون إلى الإسلام، فكان جزاؤهم القتل، لم ينج منهم إلا رئيسهم بعد أن ظنوا أنه مات.

وأمّر على الجيش زيد بن حارثة، وقال: (إن قتل زيد فجعفر بن أبي طالب، وإن قتل جعفر فعبد الله بن روا حة).

وسار الجيش وقد بلغ عدده ثلاثة آلاف من المهاجرين والأنصار، بعد أن ودعهم المسلمون قائلين لهم: صحبكم الله، ودفع عنكم، وردكم إلينا سالمين غانمين.

وخرج رسول الله ﷺ يشيعهم، ويوصيهم قائلاً: (اغزوا باسم الله، قاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام، وستجدون فيها رجالاً في الصوامع فلا تتعرضوا لهم، ولا تقتلوا امرأة ، ولا شيخاً فانياً، ولا تقطعوا شجراً، ولا تهدموا بناء).

ثم مضى الجيش في سبيل الله حتى وصلوا (معانا) من أرض الشام، فبلغهم أن هرقل قد نزل (مآب) في أرض الشام، في مائة ألف من الروم، وانضم إليهم مائة ألف أخرى من متنصرة العرب.

فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليلتين يتدبرون الأمر، وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا بالرجال، أو أن يأمرنا بأمره فنمضي له.

فقال الصحابي الجليل عبد الله بن رواحة: يا قوم والله إن التي تكرهون للتي خرجتم من أجلها، تطلبون الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما

نقاتلهم إلا بهذا الدين، الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين، إما ظهور وإما شهادة.

من مواقف الإيمان:

فتشجع الناس وقالوا: صدق ابن رواحة، وسار الجيش الإسلامي تحدوه الرغبة في إعزاز دين الله، وحب الشهادة حتى التقى ثلاثة آلاف مؤمن بمائتي ألف كافر، التقى الجمعان غير متكافئين عدداً وعدة، وقاتل المسلمون قتال الأبطال الشجعان، لم ترهبهم قوة الأعداء، فقاتل زيد بن حارثة حامل لواء المسلمين حتى قتل شهيدا في سبيل الله، فولي القيادة بعده حسب أوامر الرسول ﷺ جعفر بن أبي طالب، وحمل اللواء، وكان على فرس له شقراء، فنزل عنها وعقرها وتقدم يقاتل في سبيل الله، حاملاً اللواء وهو يقول:

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وبارداً شرابها
والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعدة أنسابها
عليّ إن لاقيتها ضربا بها

وكان جعفر يحمل اللواء بيمينه فقطعت، فأخذه بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضديه، متقدماً صفوف المشركين حتى قتل، فاستشهد ﷺ، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، بعد أن خط في كتاب البطولة والشجاعة الإسلامية سطوراً مشرقة، فكان جزاؤه من ربه أن أبدله بيديه جناحين يطير بهما في الجنة حيث يشاء.

وبعد استشهاد جعفر بن أبي طالب ﷺ، تسلم الراية عبد الله بن رواحة، فتقدم بها يخترق صفوف الروم، وهو على فرسه، فجعل يستنزل نفسه ويتردد بعض التردد وهو يرتجز:

أقسمت بالله يا نفس لتنزلنه لتنزلنه أو لتكرهنه
إن أقبل الناس وشدوا الرنه ما لي أراكِ تكرهين الجنه
قد طال ما قد كنت مطمئنه هل أنت إلا نطفة في شنه

ويقول أيضاً:

يا نفس إلا تقتلي تموتي هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت لقد أعطيت إن تفعلي فعلهما هديت

وما زال يتقدم باللواء ويقاتل حتى قتل شهيداً ﷺ.

بزوغ نجم خالد بن الوليد:

ثم أخذ الراية ثابت بن أقرم فقال: يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم، فقالوا: أنت. قال: ما أنا بفاعل، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد المخزومي.

فلما أخذ خالد الراية قاتل قتال الأبطال الشجعان، حتى تكسرت في يده تسعة أسياف ما نفعته إلا صحيفة يمانية، ثم استعمل دهاءه وحنكته الحربية، فانحاز بالجيش جانباً، وأنقذه من الهزيمة، وكان الليل قد أرخى سدوله، فانتهز خالد بن الوليد هذه الفرصة، وغير نظام الجيش فجعل المقدمة ساقة والساقة مقدمة، والميمنة ميسرة، والميسرة ميمنة، وصفَّ صفاً طويلاً وراء الجيش.

فلما أصبح الصباح، وتقابل الجيشان أنكر الروم ما كانوا يعرفون من راياتهم وهيئاتهم، وسمعوا من الجلبة وقعقعة السلاح ما جعلهم يظنون أن مدداً وصل المسلمين، فرعبوا وانكشفوا، ومازال خالد يحاورهم ويداورهم والمسلمون يقاتلونهم في أثناء انسحابهم حتى خاف الروم، فتحاجز الفريقان وانقطع الرجال.

وقد أبلى المؤمنون الشجعان بلاء حسناً، في ذلك اليوم، وبفضل شجاعتهم وثباتهم تبدلت هزيمتهم نصراً، وكيف لا يكون نصر وقد صمد جيش المسلمين الثلاثة آلاف أمام جيش تعداده مائتا ألف؟، وانسحابهم وهو موفور العدد والعدة محفوظو الكرامة، وإنه لشيء نادر في تأريخ الحروب أن يقف رجل واحد أمام سبعين من الجنود المدججين بالسلاح، ولكنه الإيمان الذي يجعل الجبان شجاعاً، ولعل مما يثير العجب أن جميع من استشهد من الجيش الإسلامي في معركة مؤتة لا يزيد عن اثني عشر شهيداً.

الرسول ينعى أمراء معركة مؤتة:

ولقد أطلع الله رسوله على ما جرى في معركة مؤتة، فقام رسول الله ﷺ على المنبر، فقال: (أخذ الراية زيد بن ثابت، فأصيب فأخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأصيب ـ وعيناه تذرفان الدموع ـ ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم)، ومن يومها عرف خالد بن الوليد بسيف الله المسلول.

ولما رجع خالد بن الوليد بالجيش إلى المدينة المنورة، استقبلهم أهل المدينة بقولهم: الفرّارون، ولكن الرسول الكريم ﷺ أعلم بالقوم وما كابدوه من المشقة، فقال: (بل هم الكرّارون إن شاء الله).